الباب الثانى

إياكم والظن

قال الله تعالى :

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾

[النور : ١٢] .

إياكم والظن

المقصود بالظن هنا هو الظن السيئ ، والذى يعرِّفه ابن كثير بأنه : « التهمة والتخون فى غير محله ، وعدم التحقيق فى الأمور ، والحكم على الشيء بدون دليل » [١] .

وتكمن خطورة انتشار ظاهرة الظن السيئ فى المجتمع أن أفراده لا يشعرون بالأمان والاستقرار تجاه بعضهم البعض ،إذ يتربصون بكل كلمة أو حركة تصدر من الآخرين لكى تبنى عليها جبال من الخيالات والأوهام والتوقعات السيئة التى تتحول فى النفس إلى حقائق يتعامل أفراد المجتمع مع بعضهم البعض على أساسها ، فيتجهم فى وجه هذا ويقاطع هذا ويعاقب هذا ، بل وقد يضرب أو يقتل الآخرين مستندا على هذه الظنون المتراكمة فى خياله المريض بينما هى لا وجود لها فى الواقع .

ويضاف إلى ذلك أن انتشار هذه الظنون بين أفراد المجتمع يهون من المعصية فى القلوب ، إذ أن الإنسان بظنونه هذه يرى المجتمع كله ملوثاً فما يمنعه أن يتلوث مثلهم .

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وأخطر أضرار الظن السيئ أنه الطليعة لسلسلة من الموبقات والكبائر التى تتبعه دون تردد فإن لم يكبح الإنسان جماح هذا الظن ويجاهد فى دفعه فالظن يتلوه التجسس والغيبة والنميمة وغيرها ، وكل هذه الموبقات ثمرة طبيعية للظن السيئ .

ولهذا كان النهى الشديد عن هذا الخطر فى الكتاب والسنة فيقول اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ . (١) [الحجرات : ١٢] .

والملاحظ أن التعبير القرآنى استخدم فى النهى هنا لفظ اجتنبوا للدلالة على شدة الابتعاد عنه ، والحذر من الاقتراب من حماه حذراً من الوقوع فيه ، أى أنه ينبغى اجتناب مقدمات الظن أيضاً كالخاطرة والفكرة العارضة حتى لا يصل بنا إليه ، ويلاحظ أيضاً استخدام الآية للفظة ﴿ بَعْضَ ﴾ تحرزا عن الظنون المشروعة ؛ كالظن الحسن مثلاً .

أما عن السنة فكثير من الأحاديث تعرضت لهذه القضية باهتمام ، نذكر منها عن عبد اللَّه بن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما قال : « رأيت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهو يطوف بالكعبة

---

(١) قال الامام البخارى ﴿ بَعْضَ ٱلظَّنِّ ﴾ وهو الظن السيئ بالمسلمين .

ويقول : ما أطيبك ، وأطيب ريحك ، ما أعظمك ، وأعظم حرمتك ، والذى نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم عند اللَّه تعالى حرمة منك ماله .. ودمه .. وأن يظن به إلا خيرا » [١] .

انظر كيف جعل حرمة المؤمن أعظم حرمة من واحدة من أقدس مقدسات المسلمين التى يحج إليها المسلمون من كل صوب .

ثم هو يجعل الظن الحسن فى المؤمن قريناً لحرمة دمه ، وماله ، وهما أشد حرمات المسلم ، أى : أن الظن السيئ به قرين لانتهاك حرمة دمه باراقته أو ماله بغصبه أو سرقته . ومن الحديث أيضاً : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » [٢] .

---

(١) رواه ابن ماجة [٣٩٣٢] عن عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنه وضعفه الألباني .

وروي الترمذي [١٣٩٥] والنسائي في المجتبى [٣٩٨٧/٨٢/٧] عن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم : قال لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم . وعند ابن ماجة [٢٦١٩] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه وفيه : قتل مؤمن بغير حق . والثلاثة صححهم الألباني .

(٢) رواه البخارى [٤٨٤٩] ومسلم [٢٥٦٣ / ٢٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

وفى هذا الحديث معنى جميل فالظن هو حديث القلب الموضوع فى غير محله ، والتحذير الشديد فى لفظة النهى « إياكم » ثم التحذير الأشد باستخدام أفعل التفضيل « أكذب » أى : أنه أكثر الأحاديث كذباً ، ولعل السائل يتساءل كيف يكون أكذب الحديث بينما هو يصدق أحياناً أى : أن الظن أحياناً ما يوافق الواقع فكيف يوصف بالكذب ، بل بأكذب الكذب . والجواب أن الشارع الحكيم أثم صاحبه كإثم أشد الكذابين سواء صدق هذا الظن أم لا ، إذ أن الإثم معلق بالظن السيئ بغض النظر عن موافقة هذا الظن للواقع أم لا ، أى أنه أكذب عند اللَّه من الكذب الحقيقى وذنبه أكبر منه .

وكثيراً ما يقهر الظن صاحبه ، ولا يملك له دفعاً لشدة تغلبه ، هنا يتدخل الحديث الشريف ليعالج آثاره قبل أن تستفحل ، ويمنع سلسلة الموبقات المترتبة عليه من تجسس وحقد وحسد وغيبة وغيرها فى الحديث الشريف : « .. وإذا ظننت فلا تحقق » [١] ، أى : « إذا غلبك الشيطان بالظن ، ولم تستطع له دفعاً فلا

(١) جزء من حديث رواه الطبرانى فى الكبير [٣ / ٢٢٨ / ٣٢٢٧] .

يستدرجنك للسعى للتحقق من هذا الظن فتقع فى أخطار أشد فتسعى فى هتك أشياء سترها اللّه عنك ، أو الايقاع ببرىء لم يرتكب جرماً أو التلصص والتجسس .

ولا يخفى أن الظن السيئ إذا شاع فى المجتمع مزق أواصر المحبة بين أفراده ، وأشاع التهم بغير دليل وعدم الثقة مما يعرض بنيان المجتمع للانهيار ، وكم كان التعليق القرآنى الفريد على حادث الإفك الذى اتهمت فيه أم المؤمنين عائشة رضى اللّه تعالى عنها بأشنع اتهام بناء على ظن سيئ قذر أشاعه المنافقون وروجوا له يقول تعالى : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور : ١٢] .

فجعل المجتمع المسلم كرجل واحد إذا ظن بعضه السوء ببعض فكأنما ظنه بنفسه ، أو أنه ينبه أنه ينبغى أن يحسن الظن بالآخرين ليحسنوا به الظن والعكس ، وتضيف الآيات : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور : ١٩] .

والآية لا تتكلم عن فاحشة وقعت ، وإنما عن ظن سيئ تداولته

ألسن الناس فوصفها القرآن بالفاحشة وهدد مروجى هذه الظنون بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة .

هذا هو الظن المؤثم والذى ينبغى أن ينزجر عنه المؤمنون على عمومهم ، ولكن فى حق المحتسب يكون النهى أشد ، وذلك أن اللّه تعبدنا بالوسائل كما تعبدنا بالغايات ، وأن الظن الحسن هو الوسيلة المشروعة فى التعامل مع المسلمين ، بينما لا يجوز أن يكون الظن السيئ هو المقدمة لتتبع الجريمة لمحاولة التصدى لها ؛ لأن النبى صلى اللّه عليه وسلم قالها بحسم : « وإذا ظننت فلا تحقق » (١) .

أى : لا ينبغى أن يدفعك الظن السيئ إن وجد - وهو لا ينبغى أن يكون أصلا - إلى أن تسعى للتحقق منه سعياً إلى تأكيده .

وفى الحديث عن معاوية رضى اللّه تعالى عنه مرفوعاً : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » (٢) .

ولا يخفى أن أول التتبع إنما يكون بالظن السيئ ثم السعى للتحقق منه .

---

(١) سبق تخريجه

(٢) رواه ابو داود [٤٨٨٨] عن معاوية رضى الله تعالى عنه وصححه الألبانى .

هكذا ينبغى أن تكون صورة المجتمع المسلم ، مجتمع سليم الصدر تجاه بعضه البعض ، وإن إفلات جريمة سترها اللّه تعالى بحسن ظن المجتمع تجاه أبنائه ، وعدم تتبع عوراتهم خيرٌ ألف مرة من ظن سيئ قد يوضع فى غير موضعه يوغر الصدور ، ويقضى على الثقة ، ويمزق وشيجة المحبة بين أفراده ولا عجب أن تجد عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه يقول : « .. ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها على الخير محملاً » .

○ ○ ○